

القائد الشاب ...

للأستاذ أحمد فتحي مرسى

[لقد بلغنى أن قوماً يقولون في إمارة « أسامة »
ولعمري لئن قالوا في إمارة لقد قالوا في إمارة أبيه من
قبله ، وإن كان أبوه خليقاً بالإمارة ولأنه خليق لها .]
(حديث شريف)

جرى على شفاه القوم في المدينة في ضحوة ذلك اليوم من ربيع
السنة الحادية عشرة للهجرة أن محمداً - صلى الله عليه وسلم - أمر
بالصدّة لغزو الروم وأمر على الجيش « أسامة بن زيد بن حارثة »
ووقع هذا الخبر من الناس موقنين : وقع من نفس قوم
موقع العجب والدهشة ، ووقع من نفس أقوام موقع التجلّي
والطاعة . وكان الناس في المدينة بين هؤلاء وأولئك ... فأما
الأولون فقد عجبوا كيف يؤمّر على جيش يضم صفوة المهاجرين
والأنصار شاب حدث كأسامة لم يعد العشرين ربيعاً بعد ،
وكيف ينفرون للغزو وهم لم يعودوا من حجة البلاغ أو الوداع
إلا من زمن قريب ، ولم يستقر بهم المقام بعد في المدينة ، حتى
وقع في روع بعضهم أنهم سيحيون حياة دعة وهدوء ، بعد أن
نصر الله دينهم ، ودخل الناس فيه أفواجا ، ودانت شبه الجزيرة
جميعها لدعوة الرسول الجديد ، فابهم حاجة لغزو آخر بعد هذا
الجهاد الواصب الطويل ، وبعد أن أكل الله لهم دينهم ، وأتمّ
عليهم نعمته ، ورضى لهم الإسلام ديناً

ثم إن الروم عدوا يهون أمره ، ولا تلبث قناته ، قد قهر
الفرس ولم يستطع العرب أن يقهروه ، وهو فوق ذلك حامي
المسيحية ، وإن به لشوقاً للقاء هؤلاء القوم الذين أجلاوا المسيحية
عن أوكارها من شبه الجزيرة ... وهم ما زالوا يذكرون غزوة
« مؤتة » وكيف خرج لهم الروم في مائة ألف ، وكيف ذهبت
هذه الغزوة بثلاثة من صفوة قواد المسلمين ؛ ولولا مهارة رابعهم
خالد بن الوليد في الانسحاب للحق بهم ولقتك الروم بالجيش ، ولأنهم
ليذكرون أيضاً كيف تقاعس الناس بعد خسر « مؤتة » عن لقاء الروم
في تبوك ، حتى قال بعض ضعاف النفوس للناس : لا تتفروا في الحر
إلى تلك الأصقاع . فنزل قوله تعالى « وقالوا لا تشفروا في الحرّ

قل نار جهنم أشد حراً لو كانوا يفقهون » ... وحتى
ذهب البعض الآخر يتلص الحجاج الواهية ليأذن له النبي في البقاء
كما فعل الجدي بن قيس حين قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم :
« هل لك العام في جلاذ بني الأصفر ؟ » فقال : « يا رسول الله
أو تأذن لي ولا تفتني فوالله لقد عرف قومي أنه ما من أحد
أشدّ محبباً للنساء مني . وإنني لأخشى إن رأيت بني الأصفر ألا
أصبر » فأعرض عنه الرسول ونزلت فيه الآية « ومنهم من يقول
انذني ولا تفتني ألا في الفتنة سقطوا وإن جهنم محيطة بالكافرين »
فعدوا تلك حاله وحال المسلمين معه ، كيف يكون على رأس
جيشه غلام حدث كأسامة ، وكيف يعقد له اللواء في جيش يضم
صفوة الأنصار ، وشيوخ المهاجرين الأولين كأبي بكر وعمر ؟

تلك قصة القوم من ضعاف الإيمان فما خير المؤمنين ؟
لقد قال المؤمنون إن هذا أمر الرسول فطلبهم طاعته . ألم يقل
الله تعالى : « ومن يطع الرسول فقد أطاع الله » . ألم يقل عز
وجل : « ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع
غير سبيل المؤمنين توّله ما توّى ونصله جهنم وساءت مصيراً » .
ثم إنه الغزو جهاد في سبيل الله ، وإن المرء لفاثر فيه بأحد
الحسنين : الاستشهاد أو الظهور ، وما أحدهما إلا خير عند الله
من الآخر ... صحيح إن أسامة شاب لم يعد العشرين ربيعاً ،
ولكن أليس الشباب أفتد عزماً ، وأنهمض همة ، وأبث للحمية
في النفوس ؟ ... ألم يحسن الوقت بعد ليحمل الشباب لواء هذا
الدين الجديد ، ونهض بأمره ، ويشترك في تحمل تبعاته الجسام ؟
ثم أليس أسامة من خيرة شباب الإسلام : أليس أبوه زيد بن حارثة
مولى رسول الله وصاحب هنته ، وثاني من آمن به من الرجال بعد
علي بن أبي طالب ، وأول من استشهد في غزوة الروم في مؤتة
وبين يديه لواء الإسلام ؟ أليس أسامة من استشاره النبي في حديث
الإفك عن عائشة وهو صبي صغير ؟ إن المسلمين ما زالوا يذكرون
يوم دعاه النبي ودعا معه علي بن أبي طالب إلى منزل أبي بكر
ليستشيرها في أمر عائشة وصفوان ، وقد استفاض حديث الناس
وكثر القول . فأما أسامة فقد قضى أن الحديث إفك وبهتان
عظيم . وأما عليّ فقد قضى قاتلاً : إن النساء لكثير غيرها .
وأما الوحي فقد قضى بما قضى به أسامة : « ولولا إذ سمعتموه
قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم »

الطاهرة في حجر عائشة وهو يقول هامساً : « بل الرفيق الأعلى من الجنة »

ويبلغ نبي رسول الله أسامة بالجرف ، فهبط وجيشه إلى المدينة ويركز لواءه بياب عائشة ... ثم تتعاقب الأحداث ، ويلى أبو بكر الخلافة ، ويمود الناس إلى حديثهم عن إمرة أسامة ... لقد مات الرسول فما ضرهم لو عاودوا الأمر على أبي بكر لعله يلين حيث سلب النبي ، ويولى أمرهم رجلاً أقدم سناً

ويجتمع الأنصار ويحملون رسالتهم عمر بن الخطاب ويقولون له : « أطلب إلى خليفة المسلمين أن يولي أمرنا رجلاً أقدم سناً من أسامة » . ولعل عمر كان يجاريهم هذا الرأي . لعله كان يشق عليه وهو القى قدمه أبو بكر للخلافة بعد رسول الله في اجتماع السقيفة أن يتأمر عليه شاب حديث لم يكن له مثل جهاده في الدين . لعل ذلك جال في ذهن عمر لأنه سارع بحمل الرسالة إلى أبي بكر ويصل عمر بالرسالة ويبلغها أبا بكر فيفض أبو بكر ويقول :

— « تكلمت أمك يا ابن الخطاب ... استأمره رسول الله صلى الله عليه وسلم وتأمر أن أزرعه ... » ثم يقوم الخليفة الشيخ وأمره بإفاد الجيش ، ويخرج يستهض الناس ، حتى إذا تم تجهاز الجيش سار يشيمه وهو ماش وأسامة راكب . فيعز على أسامة أن يسير خليفة المسلمين — وهو إذ ذاك شيخ في الستين — وهو راكب إلى جواره فيقول له : « يا خليفة رسول الله والله لتركبن أو لأزلن » فيرد أبو بكر : « والله لا تنزل والله لا أركب ، وما على إلا أن أغبر قديمي في سبيل الله ساعة فإن للغايز بكل خطوة يخطوها سبعمائة حسنة تكتب له وسبعمائة معصية ترفع عنه »

ويخرج الجيش إلى الصحراء ، وهناك يدعو له أبو بكر ويطلب إلى أسامة أن يأذن لعمر في البقاء ليشير عليه فيأذن أسامة ويسير الجيش على بركة الله ورضايته

ترى هل يحقق أسامة همة النبي به ؟ ترى هل يفلح حيث أخفق أبوه وثلاثة من خيرة قواد المسلمين ؟ ترى هل يقهر عدواً لم يقهره أحد من أهل زمانه ؟ ترى هل يقطع السنة المجادلين الكافرين القليلي الثقة به وبالشباب ؟ ترى هل يرفع رأس شباب الإسلام ، ... له الاضطلاع بما يتقل من الأعباء ؟

تعاقت شهور وأيام ...

فمن ذلك المائد إلى المدينة يتخطر على ظهر جواده ؟ ولئن هذا

أليس أسامة بعد هذا كله حقيقاً بهذه الثقة النالية ؟ ! إذن فليعض على بركة الله ، ولينتم لأبيه الشهيد ، وليضرب للشباب مثلاً يخلد على الدهر

ودعا النبي أسامة فقد له اللواء وأوصاه أن يوطى الخيل تخوم البلقاء والداروم في أرض فلسطين على مقربة من « مؤنة » حيث قتل أبوه ، وأن ينزل على أعداء الله وأعدائه في عمارة الصباح ، وأن يُعمن فيهم قتلاً ، وأن يجرهم بالنار ، وأن يتم ذلك ذراكاً حتى لا تسبق إلى أعدائه أنباؤه ، واستوصاه بالنساء والأطفال خيراً ، وأمره بأن يخرج إلى الجرف — على مقربة من المدينة — حتى يتم جهاز الجيش ... وخرج أسامة فضرب لواءه بالجرف ، وأقام في انتظار أمر الله وأمر الرسول

وإن أسامة لفي ارتباب أمر السير ، وإن الجيش لفي جهازه وعدته ، وإن الناس لفي حديثهم عن إمرة أسامة على شيوخ الإسلام ، إذ مرض الرسول عليه الصلاة والسلام مرضه الأخير بعد جهاديين طويلين في سبيل الله : جهاد الروح في الرسالة ، وجهاد الجيم في التزوات والحروب . واشتد به المرض حتى لم يقو على مجالسة أصحابه ... ولكن يشاء الله أن تبلغ همسات الناس في أسامة آذان ذلك الراقد على فراش مرضه ، الذي برحت به الحمى حتى عاد يشمر كأن به منها لهماً ، يشاء الله أن يبلغ أذنيه أن الناس يقولون إنه أمر على جلة المهاجرين والأنصار غلاماً حدثاً . فيعز عليه ذلك ويحشى أن تقع الفتنة في الناس ، فيطلب إلى أهل بيته أن يرقوا عليه سبع قرب من آبار شتى حتى يذهب الماء يعض حرارة الحمى . ثم يعصب رأسه ويتحامل على نفسه ويقسند حتى يبلغ المسجد ، فيجلس على المنبر فيحمد الله ويصلى على أصحاب أحد ثم يقول :

« لقد بلنتي أن قوماً يقولون في إمارة أسامة ، ولعمري لئن قالوا في إمارة لقد قالوا في إمارة أبيه من قبله — وإن كان أبوه خليق بالإمارة — وإنه خليق لها فأهتدوا بمث أسامة » ثم يقول : « إن عبداً من عباده خيره الله بين الدنيا وبين ما عنده فاختار ما عند الله » ... ويدرك أبو بكر والناس ما بهنم العبارة من إعناء فيتأثر الناس ويكي أبو بكر ...

ويقل المرض على المريض بعد ذلك الماء الذي صب عليه وهو في لب الحمى ، وبعد ذلك الجهد الذي بذله في خطاب الناس فيأمر أبا بكر أن يصلى بالناس ، ولا يلبث أياماً حتى يسلم أنفاسه